قراءة سردية بنوية في رواية "حمائم الشفق"

– الاستذكار– أنموذجا

محمد بلعزوقي

جامعة البليدة 2

الملخّص

نحاول في هذا البحث تتبع **الاستذكار** أو الاسترجاع –كما يسمى – في الرواية الجزائرية *حمائم الشفق أنموذجا* لنتعرف على **أنواعه** و **وظائفه**. خاصة و أن رواية "حمائم الشّفق " تعتبر نصّا روائيا حديثا؛ تحوي أنواع الاسترجاع التي ذكرها عديد الباحثين البنويين، وعلى رأسهم جيرار جينيت، و الأهم من ذلك أنها تحوي نوعا من الاستذكار لم يذكره أحد من الباحثين على حد علمنا. فأنواع الاسترجاع المعروفة هي: **الداخلي** و **الخارجي** و **المركب** و **الممزوج**، و نجد في حمائم الشفق بالإضافة إلى هذا استرجاعا آخر سميناه **المعقّد**، هذا لأنها مبنية على تعدد الضمائر العربية و الصيغ التعبيرية. نطرح هذا الموضوع لنبين ثراء الرواية الجزائرية بالتقنيات السردية الروائية.

توطئة:

تُعالج رواية "حمائم الشّفق" قضيّة متشعّبة الأطراف؛ تظهر من خلال الأزمات الّتي تعيشها مدينة أسطورية، وما تعانيه وأهلها من ويلات الغزاة المستعمرين، على مرّ العصور، بالإضافة إلى ما يكابده أبناؤها من جرّاء طمع وجشع حكّامهم (المشْيَخَة) ومعاونيهم (الجَلاوِزَة)، الّذين سلبوهم أبسط حقوقهم، وجعلوهم يعيشون تحت وطأة الظّلم والفقر والمرض والجهل...الخ. ورغم كلّ هذا يسعى هؤلاء الأبناء البررة إلى تغيير هذه الحال؛ ويظهر ذلك من خلال نموّ الشّخصيات وسعيها وتطلّعها لمستقبل أفضل، حتّى ولو تطلّب ذلك العُبور على جسر هذه الحياة إلى ضفّة الحياة الأخرى، حيث سيتجسّد بالتأكيد الهدف المنشود.

وقد أورد القاصّ كلّ هذا ضمن مسار سردي معقّد نوعا ما؛ فقد خُيّل إليّ وأنا أقرأ هذا النصّ للمرّة الأولى متدرجا عبر فصوله الثلاثة عشر أنّي أقرأ مجموعة قصصية، قد تكون بينها علاقة واهية، أوقد لا تكون، خاصة وقد انعدمت الإشارات الزّمنية الخارجية الدالة على زمن هذا النص؛ وهذا ما أدى إلى خلخلة بنائه، لكن بإعادة القراءة المرّة بعد المرّة؛ استطعت أن أعثر على ذلك الرابط، الّذي يجمع بين هذه الفصول؛ فعثرت بذلك على الحلقة الّتي تجمع السلسة لتكون لُحمة واحدة، هذه الحلقة تتمثل في الضّمائر.

يبدأ سير أحداث هذه الرّواية من الزّمن الحاضر؛ من ليلة اختطاف " بُوجْبَلْ " أحد مناضلي المدينة الشرفاء، من قِبل الجَلاوِزَة، ورمية على صخور شاطئ البحر؛ لتبدأ ذاكرته بالاشتغال فتعود الأحداث إلى الوراء، إلى حرب الجبل، الّتي من المفروض أن تكون هي نقطة الانطلاق حسب المنطق، ثم يحدث اضطراب كبير بين هذه النقطة

وسابقتها ونقاط أخرى تتقدمها، متمثلة في قتل رسام المدينة، وتجنين رفيقته جميلة، الّتي أعدّت مخطّطا للمدينة الجديدة رفقة الرّسّام، وتركت مهمة تنفيذه (المخطّط) لابنهما الّذي رحل إلى البحر ذات صبيحة، لاكتشاف الموقع الجديد، الّذي سيجسّد فيه هذه المدينة الحلموية.

وفي الرّواية الّتي بين أيدينا، وطيلة هذا المسار السّردي، لم نضع أيدينا على مؤشّر زمني واحد يحيلنا على الزّمن التاريخي الخارجي لوقوع الأحداث، فـ" الزمان الوحيد الّذي يبنيه الروائي هو زمن السّرد لا غير؛ عملية السّرد هي الوحيدة الحاضرة زمانيا، هي حالة قصوى لسرد لا يحيل إلى أيّ مرجع خارجي، إلى أيّ زمان غير زمان السّرد"[1]؛ وعدم وجود هذا المؤشّر جعل الزّمن في الرّواية ينتابه الغموض والتضليل، ويقترب من الزّمن الفلسفي والإيديولوجي أو حتّى الزّمن الأسطوري، هذا الأخير الّذي تمتاز به تلك المدينة الأسطورية الّتي تحتضن الأحداث، فقد عمد "خلاص" إلى طريقة خاصّة في بناء زمنه " لا تعبأ بالعامل التاريخي في حد ذاته بقدر ما تهتم بالجوانب الإنسانية العامة الّتي يُمكنها أن تحدث في أيّ زمان أو مكان،"[2] وفي المقابل نجده اهتم بالبناء الوقتي داخل عمله السّردي فعمد إلى تشويشه، وكسر خطيّته؛ ما أضفى على الرّواية إيقاعا خاصا؛ أكسبها وتيرة متميّزة، تحوي الماضي داخل الحاضر في تطلّع إلى المستقبل، هذا الأخير الّذي قصد إليه الرّاوي – حسب رأينا – لأنّ المعوّل عليه دائما في تغيير الحاضر هو المستقبل.

إنّ الرّواية تروي أحداثا ماضية يتم ترهينها الآن، فالسّرد تابع دائما لأحداثها، إلا في تلك الّتي رمى بها الراوي نحو المستقبل، وخاصة منها تلك الّتي لم يطلها السّرد ولم يذكرها مجدّدا؛ فلم نعرف ما إذا تحققت، أو بالأصح هل ستتحقق؟ فهذه الأحداث تركها الراوي ليفسح المجال أمام خيال القارئ ليملأ الفراغات، ويسدّ الثغرات على حسب المستجدات والمعطيات.

و انطلاقا مما سبق، فإننا قد اعتمدنا على نقطة انطلاق الرّواية كمقياس يساعد على اكتشاف موقع الأحداث وترتيبها وسرعتها. بالإضافة إلى اعتمادنا على مؤشرات زمنية داخلية أخرى، لكن رغم كلّ هذا لن يكون بإمكاننا أن نمسك بمدّة الأحداث الدقيقة في الرّواية، ناهيك عن زمن بدايتها ونهايتها.

ونشير إلى أنّ الكاتب قد عمد إلى تقسيم روايته إلى ثلاثة عشر فصلا، معنونا إياها بالضمائر : (أنا. أنتَ.أنتِ. هو. هي. نحن. أنتما أنتما. هما. هما. أنتم. أنتنّ. هم . هن) بهذا الترتيب، لكن هذه التقسيمة لم تساعدنا كثيرا في تحديد زمن و مدّة الأحداث، إذ إنّ أغلب الفصول، تحوي في كثير من الأحيان، أحداث فصول أخرى، و من أجل ترتيب أحداث هذه الفصول الترتيب المنطقي، سنأخذ منها الحدث الهامّ الأساسي، واضعين جنبا الأحداث الثانوية الهامشية، ونظرا لتعدد الأحداث وتداخلها؛ سنختار منها الأبرز، كما هو موضح في الآتي:

الأحداث كما وردت في السّرد	**الأحداث كما وقعت في الواقع**
1- اختطاف "بُوجْبَلْ "	1- الواقعة الّتي أودت بالغزاة الشماليين
2- حرب الجبل	2- إبرام اتفاقية الاستسلام
3- حياة الرّسّام	3- حرب الجبل

4- مقتل الرّسّام	4- الجلاء
5- التعرّف بين جميلة والرّسام	5- اختطاف بُوجْبَلْ
6- وفاة جميلة بعسر الولادة	6- ثورة الأرحام
7- رحلة ابن الرّسّام إلى البحر .	7- حياة الرّسّام
8- عام العجاج	8- التعرّف بين جميلة والرّسام
9- الواقعة الّتي أودت بالغزاة الشماليين	9- مقتل الرّسّام
10- الجلاء	10- وفاة جميلة بعسر الولادة
11- إبرام اتفاقية الاستسلام	11- عام العجاج
12- ثورة الأرحام	12- رحلة ابن الرّسّام إلى البحر.
13- التمرّد	13 - التمرد

نلاحظ ، من خلال الشكل السابق، التنافرات الزّمنية الحاصلة بين زمن السّرد وزمن الوقائع. وللتّوضيح أكثر نضع الشكل التالي:

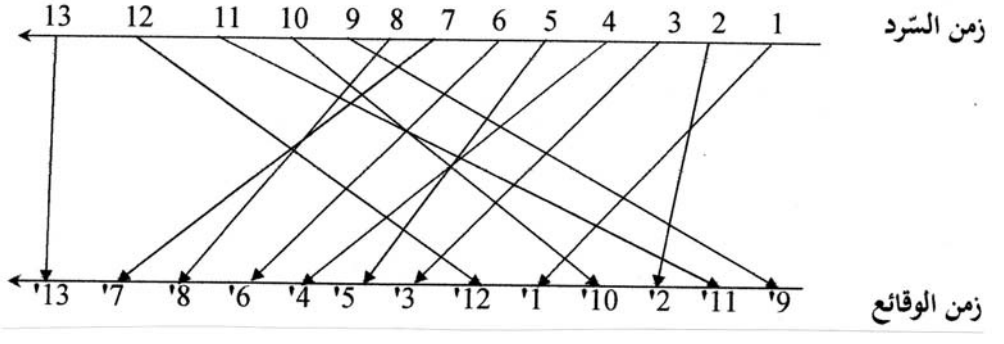

تتطلّب" دراسة التّرتيب الزّمني لحكاية ما مقارنة نظام ترتيب الأحداث، أو المقاطع الزّمنية في الخطاب السّردي بنظام تتابع هذه الأحداث أو المقاطع الزّمنية نفسها في القصة"[3] إذْ " ليس من الضّروري... أن يتطابق تتابع الأحداث في رواية ما مع التّرتيب الطبيعي لأحداثها كما يفترض أنها جرت بالفعل."[4] وحتّى نستطيع أن نكشف عن الأنظمة الزّمنية السّردية، يجب أن تتوفّر لدينا نقطة مرجعية تكون بمثابة نقطة الصّفر الّتي تعني التّوافق التّام بين الأحداث السّردية ونظيرتها الواقعية.[5]

كنّا قد عثرنا في المبحث السابق على النّقطة الصّفر في روايتنا، والّتي ظهرت في مطلعها:" لئن كانوا قد تركوني الآن..."[6]؛ لذا فإنّ كلّ ما يقع من أحداث قبل هذه النقطة و ورد في القصّ بعدها فإننا نعدّه من باب التنافر الزّمني.

وقبل الشّروع في الدراسة التحليلية قُمنا بوضع جدول إحصائي يحوي التّرتيب الزّمني من توافق، وتنافر؛ هذا الأخير المتمثل في الاسترجاعات بأنواعها؛ خارجية وداخلية ومزدوجة وفي الاستباقات.

– جدول مساحة التّرتيب:

التّرتيب فصول الرواية	مساحة اللواحق			مساحة التّوافقات	مساحة السوابق
	داخلية	خارجية	مزدوجة		
أنا	% 0.62	%66.45		%18.63	%14.28
أنتَ	% 62.11	%18.63		%17.70	%1.55
أنتِ	%62.73	%14.96		%17.19	%5.09
هو	%41.17	%3.09		%52.32	%3.40
هي	%46.58	%20.18		%22.04	%11.18
نحن	%76.34	%00		%7.25	%16.40
أنتما / أنتما	%73.59	%6.93		%00	%19.47
هما	% 4.65	%68.77	%08.30	%00	%18.27
هما	% 36.33	%24	%36.66	%00	%3
أنتم	% 8.07	%88.07		%00	%3.85
أنتن	%42.47	%46.15		%00	%11.37
هم	%16.30	%78.05		%00	%5.64
هن	%45.36	%0.99		%5.96	%47.68
المجموع	%**39.72**	%**33.56**	%**3.45**	%**10.85**	%**12.40**
	% 76.74				

نرصد من خلال الجدول السّابق الملاحظات التّالية:

– يغلب الاسترجاع على التّوافق والاستباق عموما؛ إذ يشكّل نسبة 76.74 % من النص. بينما لا يشكّل الاستباق سوى 12.40 % وتقلّ نسبة التّوافق عنهما حيث بلغت 10% فقط.

وفيما يخصّ الاسترجاعات؛ ففي الفصل الأول " أنا" طغت الاسترجاعات الخارجية على الداخلية، وهذا منطقيّ لأنّ هذا الفصل يمثّل نقطة الصّفر؛ و أيُّ استرجاع سيكون سابقا لها. وكذا الأمر بالنسبة للفصول: هما، أنتم، هم. فقد غلبت فيها نسبة الاسترجاعات الخارجية، وهي فصول تدور أحداثها حول ما وقع و ما قام به " بوجبل " و " الرّسّام" ثم سكان المدينة و مشيختها قبل حادثة اختطاف " بوجبل" .

و قد ارتفعت نسبة الاسترجاعات الداخلية في الفصول : أنتَ .أنتِ .هو .هي .نحن .أنتما أنتما.هنّ، ونجد في الفصل "هما" المؤنّث رجحان كفّة الاسترجاعات الّتي سميناها مزدوجة.

– أما الاستباقات فقد كانت نسبتها ضئيلة، إلا في الفصل " هنّ " فقد بلغت 47.68 %.

– وأما التّوافقات فقد حظيت بأقل نسبة، وانعدمت تماما في الفصول: أنتما أنتما. هما.(المؤنث). أنتم.أنتنّ.هم. فيما عدا الفصل "هو" فقد بلغت نسبتها 52.32%.

نستطيع القول، بناء على ما سبق، أنّ الزّمن المؤطّر للأحداث هو الزّمن الحاضر، غير أنّ الزّمن الماضي هو المهيمن، وهو ما تمثّله الاسترجاعات بأنواعها؛ و هذا راجع إلى الغوص في أعماق الماضي بما يزيد عن الخمسة قرون، هذا من وجهة، ومن وجهة أخرى؛ يرجع الأمر إلى أنّ أغلب الأحداث قد تكرّرت بشكل واضح عبر فصول الرواية؛ فالعودة إلى الحدث بعد تجاوزه تُعتبر استرجاعا؛ فقد عمد الراوي إلى إبراز الأحداث بدون تفاصيل من أجل تشويق القارئ للاطّلاع على هذه التفاصيل كمرحلة أولى، ثُم تقديم الأحداث من عدّة منظورات وعدّة أصوات، بمزيد من التفصيل وهذا ما يميّز هذه الرواية بالذّات؛ نظرا لتعدد الضمائر السّاردة المتضمّنة في متنها؛ وهذا ما جعل الماضي يهيمن على الأحداث.

كما نستطيع القول أنّ الرّاوي لم يلتزم الخطّية الّتي من المفروض أن تأتي الوقائع وفقها، ولكنّه عمد إلى تهشيم الزّمن وكسر رتابة ومنطقية تسلسل الأحداث، وذلك باعتماده أساليب وتقنيات فنية، ولّدت مفارقات زمنية؛ وهذا ما يؤكد أنّ" زمنية الخطاب أحادية البعد، و زمنية التخيّل متعددة، و استحالة التوازي تؤدّي إلى الخلط الزّمني الّذي نميّز فيه بداهة بين نوعين رئيسيين: الاسترجاعات أو العودة إلى الوراء، والاستقبالات أو الاستباقات"[7] ولم يكن هذا ليتأتّى للرّاوي لو لم يكن الزّمن الروائي زمنا مرنا، يمنح الرّاوي الحرّية في التنقّل بين أنواعه الثلاث (الماضي.الحاضر.المستقبل).

إنّ النظريات الحديثة تسعى لأن تخلّص السّرد من الرتابة والمنطقية السائدة في الرواية الكلاسيكية، وتروم" إلى نقل تأثير زمن حاضر منتشر يكون كلٌّ من الماضي والمستقبل جزءا منه، بدلا من تدرّج زمني منتظم لأحداث مستقلة غير متّصلة"[8] وقد عمد "**جيلالي خلاص**" إلى توظيف ما ترومه هذه النظريات الحديثة؛ فجاءت هذه الرواية على درجة من التعقيد بحيث تتداخل الأزمنة لتبدو كأنها زمن واحد؛ ومن هنا سنقوم بتحليل نماذج من المفارقات الزّمنية كالآتي:

1. الاسترجاع: ويُسمّى كذلك الاستذكار، وفي عرف جنيت Analepse[9] وهو "عمليّة سردية تتمثل في إيراد حدث سابق للنقطة الزّمنية الّتي بلغها السّرد" [10] و الاسترجاع هو الأكثر ورودا في الرّواية " حيث يتمّ بواسطته التّفاعل بين الحاضر والماضي؛ فتنصهر المسافتان الزّمنيتان في إيقاع واحد"[11]. وقد كان حاضرا بأنواعه المختلفة؛ لذا سندرس كلّ نوع على حدة.

أ. **الاسترجاعات الخارجية**: Analepses externes

يُمثّل هذا النّوع " الوقائع الماضية الّتي حدثت قبل بدء الحاضر السّردي، حيث يستدعيها الرّاوي في أثناء السّرد، وتعدّ زمنيا خارج الحقل الزّمني للأحداث السّردية الحاضرة في الرواية "[12]، ومادام الإعلان عن حادثة اختطاف "بوجبل" قد جاء في مستهلّ الرّواية؛ فقد اكتنفها الغموض لعدم معرفة أسبابها؛ لذا كان لزاما على الراوي أن يعود إلى الوراء بكثير من الاسترجاعات؛ ليكشف عن بعض الأسباب الّتي أدّت إلى هذا الحدث؛ ومن ثمَّ الحدّ من غلواء هذا الغموض؛ وهذا ما سيُسبِّب تشويشا في حركة التّسلسل الزّمني للأحداث؛ ويمكن أن يتفرّع هذا النوع من الاسترجاعات إلى فرعين:

أ.**1**. **استرجاعات خارجية ذاتية** :

تتّصل اللواحق الذاتية Analepses subjective "بالشّخصية الّتي هي تحت مجهر السّرد، والّتي يذكر الحاكي أفكارها"[13] وقد ارتبط هذا النوع بالكشف عن أحاسيس الشخصية ومشاعرها وذكرياتها. ونلمسه عندما يتحدّث "بوجبل" إلى نفسه قائلا:"نقابيا كنت قبل اللجوء إلى الجبل.."[14] فقد عادت بنا ذاكرة "بوجبل" إلى أيام ما قبل لجوئه إلى الجبل والالتحاق بالثوار، وقد عرّفنا هذا الاستارجاع بوظيفة "بوجبل" (نقابي).

و قد كان لإعطاء الحرّية للذّاكرة بالاشتغال، و الحفر في الذكريات لاستعادة ما كان في الماضي الدور البارز في إضفاء العفوية والواقعية على الوقائع، وقد جاء الاسترجاع بطريقة مفاجئة غير معلَنة إذْ ارتبط بالذاكرة الّتي لها" شأن و أيّ شأن، فهي تارة خؤون فارغة، و أخرى غاصة بالذكريات تحار أيّها تُقدم و أيّها تُسقط"[15] :" أما أنا فعمري ما تجاوزت الشهادة الابتدائية... الظروف... الفقر...الحرب...النضال، صحيح أنني قارئ شغوف لكل ما تقع عليه يدي، لكنّني لا أعتقد أنني أفهم شيئا كبيرا، عدا التاريخ وقصص الشعوب العظيمة وبعض ملامح الحضارات الكبرى الّتي رسمت طريق البشر."[16] في هذا المقطع يزيدنا السّارد/ البطل معرفةً بثقافته ومستواه الاجتماعي والحالة المعيشية الّتي رسمت خطوط حياته... وهو استرجاع بمدى بعيد؛ إذْ رجع إلى أيام طفولته ودراسته الابتدائية. غير أنّ عمقه لم يتجاوز الخمسة أسطر، أُختصرت فيها مسافة حياة كاملة، لكن ليس بإمكاننا تحديد المدى Portée والعمق Amplitude زمنيا لغياب المؤشرات الدالة على الزّمن الواقعي المعيش.

ومادمنا قد تعرّضنا لاسترجاع بمدى بعيد؛ فإنه يمكن رصد بعض الاسترجاعات بمدى قريب؛ ويمكن أن نعتبر ما مدّته خمس عشرة سنة من هذا النوع، وإن كانت مدة طويلة فإنها بالمقارنة مع أطول مدى وصله الاسترجاع (

ما يزيد عن الخمسة قرون) هي مدة يسيرة، وذلك في قوله :" لكن صدّقوني إنها صدفة. أجل مجرّد صدفة أن خرجت من تلك الحرب حيّا"[17]، ولو أنّ مدى الاسترجاع هنا غير صريح، إلا أنّنا كنّا قد بيّنا فيما سبق أنّ ما يَفصل حرب الجبل عن اختطاف "بوجبل" هي خمس عشرة سنة.

ونعثر على أقرب مدى في روايتنا في أول استذكار ورد فيها، هو هذا المقطع:" ...كانوا قد جرّدوني من ملابسي حال إيصالي الشاطئ المرجاني الأمغر الصخور"[18] إنّ الراوي هنا جعلنا نعيش الماضي القريب ، و القريب جدا من لحظة رميه على الشاطئ، نقدّر مدى هذا الاسترجاع ببضع دقائق، فإن فاق فبضع ساعة، وسعته قليلة هي الأخرى جدا؛ إذ تعادل سطرا واحدا؛ أبرز فيه الرّاوي وضعية "بوجبل" وطريقة تعامل " الجَلاوِزَة" معه.

وفي نموذج آخر نجد أنّ " بوجبل " وهو على هذه الحال؛ في شبه غيبوبة، يتذكّر زوجه و أبناءه ودراستهم وأحلام ابنته جميلة وطموحها، وعندما يرشّه رذاذ الموج يتذكّر مرافقة الجوهر إياه إلى البحر، كما يتذكر بطولاته ومعارضته المِشْيَخَة. كلّ هذه الأحداث الاستذكارية تمرُّ على "بوجبل" كومضات أو كما تُسمّى: " فلاش باك"، flash back يختلف مداها وعمقها، ولكنها دائما استرجاعات خارجية ذاتية.

ونشير إلى أنّ هذا النوع من الاسترجاع قد ورد في الفصل "أنا" بصورة واضحة وهو نادر في فصول ومنعدم في أخرى.

أ.2. استرجاعات خارجية موضوعية:

في هذا النّوع " تتعلق العملية السّردية بالحاكي [السّارد] الّذي يرى من المفيد أن يعود بالقارئ إلى الوراء لإعطاء معلومات إضافية عن تاريخ إطار مكاني أو ماضي شخصية ما"[19] وفي هذا المقام نسمع الراوي إذ يقول:" والحال أنّ المدنية كانت قد بُنيت على رواسب رملية مهزوزة غداة انحصار البحر، في تلك الواقعة الّتي أودت بالغزاة الشماليين إلى الأعماق السحيقة."[20] يُفيد هذا الاسترجاع بإعطائنا معلومات عن بناء هذه المدينة منذ غابر الأزمان؛ أي قبل خمسة قرون على الأقل. أما سعة هذه المفارقة الزّمنية فهي لا تزيد عن الصفحة وبضعة أسطر.

ويمكن أن نورد نموذجا آخر لتوضيح هذا النّوع وهو:" نزلت جيوش الغزاة غرب المدينة معتقدة أنّها قضت على أُولى دفعات المقاومين، بينما كنتم قد تحايلتم فلم ترسلوا لمواجهتها سوى زمرة سرعان ما تراجعت لإعادة الثقة العمياء...للعدو..."[21] وهذا الاسترجاع يمتدّ إلى زمن بعيد حين كان يعيش في المدينة أجيال غير الأجيال الّتي تعيش فيها الآن؛ حين هاجمها إمبراطور زمانه، فتصدّت له هذه المدينة الأسطورية وفاض موج البحر عليه، وهي حادثة تقع زمنيا قبل حرب الجبل.

أما سعتها فتكاد تصل إلى ست صفحات؛ تقصّ ما وقع في يومين ونصف اليوم. وما يُلاحظ على هذا النموذج؛ أنّه عبارة عن استرجاع مركّب؛ إذ تحدث في أوّله عن نزول الجيوش معتقدة أنها قضت على آخر

المدافعين، ثم يعود بالاسترجاع إلى الخلف ليبيّن أنها خدعة حربية إذ أرسلوا مجموعة سرعان ما تراجعوا حتّى يوهموا العدوّ بالانهزام؛ أي أنّ هذا الاسترجاع يبدأ من نقطة ثم يعود إلى نقطة أبعد؛ وهو ما يُدعى بالمركّب.

وقد لعب اتّساع الزّمن في رواية حمائم الشّفق دورا هاما في كثرة تواتر الاسترجاعات الخارجية؛ وهذا من أجل تغطية مدّة تاريخية واسعة من تاريخ مدينة عريقة وخاصة الاسترجاعات ذات المدى البعيد، تلاحقت عبر فصول الرواية فكلٌّ من الأحداث التالية قد عرفناها من خلال هذا النوع من الاسترجاع :

- حادثة الغزاة الشماليين.
- حرب الجبل.
- إبرام اتفاقية الاستسلام بين المشْيَخَة و المستعمِرين، تنصّ على السماح للغزاة بالدخول إلى المدينة مقابل السماح للمشيخة بالخروج منها مع ما يمكن حمله من أموال ومجوهرات ...
- الجلاء والاحتفال بالانتصار .
- سياسة المشْيَخَة في تلك الفترة وأسلوب معيشتهم .

. مشاريع المشْيَخَة (التخطيط لما بعد الجلاء للاستيلاء على الحكم و الثروات، مشروع القطار " اللي يمشي تحت لرض "...).

- معارضة "بوجبل" لمشاريع المشْيَخَة.

ب- الاسترجاعات الداخلية: Analepses internes

يكون الارتداد في هذا النوع " إلى نقطة مضت وتجاوزها السّرد، لكنها واقعة داخل الزّمن القصصي؛ أي متنزّلة في زمن يعقب نقطة بداية المغامرة"[22]، ويتفرّع هذا النوع بدوره إلى فرعين:

ب. 1 – استرجاعات داخلية ذاتية :

من نماذج هذا النوع ما نجده في الفصل "أنتِ" :" ومع اشتداد الآلام الهاصرة لصلبك يشتعل الأتون في ذاكرتك، فإذا أنت تستحضرين صورته وقد حدثته لأول مرة في تلك الصبيحة الربيعية ...حين حضرت إلى العمل مبكّرا.."[23] فهذا استرجاع ذاتي نابع من ذاكرة الشخصية الّتي هي تحت مجهر السّرد؛ فقد تذكرت جميلة وهي تعاني آلام المخاض كيف تعرّفت على برهان الرّسّام حين وصلت ذات يوم إلى العمل مبكرا؛وهو تذكّرٌ بمدى قريب غير أنّه لم يحدّد بدقة، استنتجنا أنه داخلي من بعض الإشارات الواردة في المتن الحكائي. فقد ذكرنا من قبل أنّ "بوجبل" أبا جميلة أُختطف وهي لم تتجاوز الخامسة عشر من عمرها؛ فكم يكون سنّها الآن وهي تضع مولودها الّذي حبلت به ليلة مقتل الرّسّام؟ وكنّا قد عرفنا أنّ الرّسّام قُتل بعد عشر سنوات من واقعة الأوّل (بوجبل) وبالتالي كان عمرها يزيد عن الخمس والعشرين سنة ببضعة أشهر(أشهر الحمل). هذا عن سنّها الآن وهي تتذكر، لكن متى تعرفت على الرّسّام (نقطة رجوع الذاكرة) ؟. قد حدثته في تلك الصبيحة في مكان عملها، إذ أنها تعمل كمهندسة بعد أن تخرّجت من الجامعة تخصص هندسة مشاريع العمران، ففي أي سن تخرّجت ؟ وجدنا إشارة أخرى تدل على مدة عملها هنا قبل هذا الصباح: " ربما سهومه هو الّذي حال دون تعارفكما من قبل رغم تزامل شغليكما منذ ما يزيد عن عام "[24] وإن لم تدل هذه الإشارة صراحة على أنها تعمل هنا منذ عام. فربما يكون

تزامل شغليهما هو الّذي كان منذ عام؛ فبعملية حسابية بسيطة نستنتج أنه لا يمكن بأي حال أن يتجاوز مدى هذا الاسترجاع السنتين، أما عمقه فهو يقارب الخمس صفحات تقص ما لا تزيد مدته عن الساعة الواحدة.

ومن بين الاستذكارات البعيدة نسبيا والمحدّدة المدى نقرأ :" الآن أدركنا أنّ جلاوزة المشْيَخَة أغبياء... و إلا ما اعتقدوا هذه ثماني عشرة سنة خلت أنّ حبسنا كفيل بإخماد الغضب الّذي أثاره يومها قتل برهان الرّسّام"[25]، يعود بنا هذا المقطع إلى ثماني عشرة سنة إلى الوراء ليعرّفنا بسبب دخول الفتية إلى السجن حيث لفّق لهم الجَلاوِزَة تهمة قتل الرّسّام وتجنين رفيقته جميلة، كما عرّفنا هذا الاسترجاع بوضعية الرّسّام الثقافية والاجتماعية.

ب. 2. استرجاعات داخلية موضوعية :

من استذكارات هذا النوع القصيرة المدى، المحدّدة المدة نُسجّل هذا المثال:"... قبل أن تموت الجدّة طاعنة قلبه الغض بصدمة المنية لأول مرّة... هذا شهر قد خلا..."[26] ويفيد هذا الاستذكار في معرفة التّحوّل الّذي طرأ على ابن الرّسّام بعد أن تركت له جَدّته صندوق أمّه الّذي يحوي مخطّط المدينة الجديدة، كما يعرّفنا . إذا ما واصلنا القراءة بامتداده الّذي يتسع ويطول . بولادة هذا الابن وحياته مع جدته.

ومن الاسترجاعات غير المحدّدة المدى النموذج التالي:" وُلدن و المساجين أجنة فريدة نحت بأعجوبة من زمن بَقْرِ الأرحام، فكنّ وكانوا طرفي خيطين كهربائيين سالبا وموجبا برقت لحظة التقائهما شرارة ثورة الأرحام الأولي، شرارات هن منذئذ فلا دخان بدون نار..."[27] قد عادت بنا مخيّلة الراوي إلى زمن ولادة الفتيات اللائي يتمردن الآن على سياسة المشْيَخَة وعلى الأوضاع السائدة، وكان قد أخبرنا في الصفحة السابقة أنهن نضجن بعد تشبعهنّ بسيرة جميلة، وعشيقها الرّسّام حتّى يُبيّن أن مصدر هذا التمرد(الدخان) نابع من ثورة(نار) جميلة والرّسّام. سعة هذا الاسترجاع قصيرة إذ لا تمثل سوى بضعة أسطر.

ج. الاسترجاعات المزدوجة:

تمثّل الاسترجاعات المزدوجة الأحداث الماضية الّتي ورد قصّها في " **حمائم الشّفق** " بصيغة المثنّى؛ وبالتالي سرد أحداثٍ، الأولى وقعت قبل والثانية بعد نقطة بداية الحاضر السّردي في آن واحد، دفعة واحدة؛ سميناها هكذا (مزدوجة) لأنها عبارة عن استرجاعات داخلية و خارجية في الآن ذاته، وردت في فصلي " هما "(للمذكر) و"هما"(للمؤنث)حيث أنّ الرّاوي يقصّ ما وقع من حوادث لشخصيتين في الوقت نفسه بصيغة المثنى؛ أي أنه يروي في الوقت نفسه ما وقع قبل و ما وقع بعد نقطة الصّفر. و هي تختلف عن الاسترجاعات الممزوجة في كون هذه الأخيرة تنطلق من استرجاع خارجي يتواصل حتّى يتجاوز نقطة انطلاق الرّواية إلى الداخل؛ أي أنه يصبح داخليا أيضا (لكن ليس في الآن ذاته)، أي أنّه من حيث المدى سابق و من حيث السعة لاحق لنقطة الحاضر السّردي. كما تختلف عن الاسترجاعات المرّكّبة في كون هذه الأخيرة تبدأ باسترجاع داخلي ثم تنطلق منه إلى استرجاع خارجي، أي أنّ المدى يتسع أكثر. وسنسوق فيما يأتي ما يوضّح ذلك:

"بنفس الطريقة* اقتحموا بيتيهما ما طبع قضيتهما بمأساة فريدة، تتطابق دفتاها، كلاهما كان يحبّ تلك المدينة، بل كلاهما ولع بعشقها، إذا هما صورتان لعشق واحد وليس الفاصل الزّمني سوى نشّة كفّ بدرت من الأيام هكذا عبثيا."[28] هنا يتحدّث الراوي في الوقت نفسه عن حدثين ماضيين لكنّ أحدهما يقع قبل الآخر بعشر سنوات أو يزيد؛ أي إنّ اقتحام بيت "بوجبل" يقع قبل بداية الحاضر السّردي، بينما يقع حدث اقتحام بيت الرّسّام بعد بداية الحاضر السّردي، فلا يُعير الراوي كبير اهتمام للزّمن ويعتبره نشّة كف بدرت من الأيام عبثا.

ولنتأمل بإمعان هذا المثال :" المرأتان ذاتاهما كانتا لا تصدّقان الأحدوثة الّتي طالما راودت مخيلتيهما كالسّراب إذ يُلحُّ عند الأفق صاهرا نظرات العطشان في الصحراء القاحلة، الّتي شمسها تتعالى و تتعالى صابّة جامّ قيضها في أشعة تخترق كالنّبال المسمومة الأجساد المتعبة، وهما تحدقان بعد اندحار الزّمن الفاصل بين عشقيهما في عيني الفحل وهو يحتضنهما بذراعيه المتوفّزتين."[29] و الأمر نفسه ينطبق على هذا المثال فكلٌّ من "الجوهر" (زوج بوجبل) و "جميلة" (زوج الرّسّام) قد أحبتا الرّجُلين، خاصة وأن قصّتيهما متشابهتان؛ فكلتاهما فقدت أباها فجاء هذا الفحل ليخرجها من حزنها، لكنّ هذا لم يحدث في الزّمن نفسه، والراوي يعي هذا؛ لذا قال "بعد اندحار الزّمن الفاصل بين عشيقيهما ".

أما عن المدى ففي الشاهد الأوّل نجد أن الراوي يذكره في الصفحة نفسها، أي في مطلع الفصل: هما (المذكّر) :" في نفس الساعة من الهزيع الأخير من الليل خلخلوا بابيهما. الأول داهموه هذه تسعا وعشرين سنة خلت، أما الثاني فقد وصل دوره بناء على دفاتر تحرّياتهم بعد عشر سنوات تامة من واقعة الأول."[30] ثم يعود الراوي القهقرى ليكشف لنا أسباب قتل الرّجُلين وملابسات القضيّتين. أما في الشاهد الثاني فهو(المدى) غير محدد، يتطلّب التأويل ورغم ذلك يمكن الوقوع في سوء التقدير.

نصل الآن بعدما حددنا الاسترجاعات الواردة في النص القصصي، و مثّلنا لكل نوع بما رأيناه كاف للتوضيح، إلى ذكر أهمّ الوظائف الّتي جاءت هذه الاستذكارات لتحقيقها. وقبل ذلك يمكن أن نسجّل ما يلي:

- حضور الاسترجاعات بكلّ أنواعها في روايتنا؛ فوجدنا الداخلي والخارجي والمزدوج، إلى جانب المقاطع الاستذكارية ذات المدى البعيد المحدد، والبعيد غير المحدد، وكذا ذات المدى القريب، والاسترجاعات الذاتية والموضوعية... وجميعها تساهم في تشكيل معمارية النص، وتؤثّر في مدى إلمامنا بحاضر ومستقبل الشخصيات، و" بفضل هذه « التبادلات » الزّمنية يتبدى زمن موسيقي يفرض نفسه على القارئ"[31]

- انفتاح النص على اللحظة الحاضرة، وانفتاح الذاكرة انطلاقا من هذه النقطة حتّى تمنح الماضي سمة الحضور والاستمرارية.

وظائف الاسترجاع :

- يقوم الاسترجاع بسد الثغرات الّتي حصلت في السّرد، و يقوم بتصحيح نسيان الراوي.

– يساعد الاسترجاع على فهم الأحداث وتأويلها؛ فالحدث الحاضر قد لا يُفهم إلا بالعودة إلى حدث سابق قد يكون سببا في حدوثه.

– تقديم شخصية جديدة وإزالة اللّثام عنها، وكشف ماضيها، حتّى نفهم أدوارها داخل المسار السّردي.

– تُساعد الاسترجاعات على تثبيت و تأكيد الحدث وتبيين أهميته، و الإحاطة بجوانبه، إذا كانت من نوع الاسترجاعات المكرّرة (وهي كثيرة جدا في روايتنا).

– تخليص السّرد من الرتابة والخطية الكلاسيكية، وتحقيق التوازن الزّمني في النص .

– إعطاء صورة عن المكان الّذي تدور فيه الأحداث، قبل بداية زمن السّرد، مثل حديثه عن بناء المدينة وموقعها الجغرافي.

– تنظيم الأحداث داخل المتن الحكائي، و سرد ما وقع في اللحظة نفسها عن طريق تقديم حدث والعودة إلى الآخر؛ إذ يستحيل عرض كل ما حدث في الوقت نفسه دفعة واحدة.

– إبراز بعض القيم الإنسانية والتاريخية، وذلك باسترجاع بطولات " بوجبل " مثلا، ودفاعه عن الوطن وحريّة أبنائه، وذكر وقائع تاريخية، مثل نزول الجيوش الفينيقية والرومانية والعربية ... في هذه المدينة.

هوامش الدراسة:

---

1 محمد ساري: التحليل البنوي للسرد، المبرّز، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب و العلوم الإنسانية، عدد11، أكتوبر– ديسمبر، 1998.ص 20

2 أحمد طالب: مفهوم الزمان ودلالته في الفلسفة و الأدب بين النظرية والتطبيق . دار الغرب للنشر والتوزيع، المغرب ،2004. ص ص 25. 26.

3 جيرار جينيت: خطاب الحكاية. ص.47.

[4] حميد لحميداني: بنية النص السّردي من منظور النقد الأدبي . ط2. المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر، بيروت، 1993 .ص.73.

[5] انظر جيرار جينيت: خطاب الحكاية .ص.73.

[6] الرّواية. ص9 .

[7] تزفيتان تودوروف: الشّعرية .ص 48.

[8] أ.أ. مندلاو: الزّمن والرواية. تر: بكر عباس. ط1. دار صادر، بيروت ، لبنان .1997.ص.201.

[9] Voir: Gérard genette: figures III .collection .poétique. ed: seuil. Paris.1972.p.90.

[10] سمير المرزوقي و جميل شاكر: مدخل إلى نظرية القصّة، ط/1. ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، والدار التونسية للنشر. د/ت. ص80.

[11] أحمد طالب : مفهوم الزمان ودلالته في الفلسفة والأدب. ص26.

[12] . مها حسن القصراوي: الزّمن في الرّواية العربية . ط1. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004. ص.195.

[13] سمير المرزوقي وجميل شاكر: مدخل إلى نظرية القصّة .ص.81.

[14] الرّواية .ص.17.

[15] أحمد السماوي: فن السّرد في قصص طه حسين، ص.104.

[16] الرّواية. ص.19.

[17] الرّواية. ص.15.

[18] الرّواية. ص.9.

[19] سمير المرزوقي وجميل شاكر: مدخل إلى نظرية القصّة.ص ص81. 82.

2 الرّواية. ص.78.

[21] الرّواية.ص. 154.

[22] الصادق قسومة: طرائق تحليل القصّة .دار الجنوب للنشر .تونس .د/ت.ص.118.

[23] الرّواية. ص.48.

[24] الرّواية. ص.48.

[25] الرّواية. ص.90.

[26] الرّواية. ص ص.57 .58 .

[27] الرّواية. ص .201.

[*] وردت هكذا و الصواب بالطريقة نفسها.

[28] الرّواية. ص.121.

[29] الرّواية. ص. 138.

[30] الرّواية. ص.121.

[31] أمبرتو إيكو: 6 نزهات في غابة السّرد، تر: سعيد بنكراد، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، 2005. ص 76.